المرحلة الثانية: الدعوة جهرا

أَوَّلُ أَمْرٍ بِإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ:

لَمَّا تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون وتتحمل عبء تبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها نزل الوحى يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة ومجابهة الباطل بالحسنى .

وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

وقد ورد فى سياق ذكرت فيه أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل وقصة نجاتهم من فرعون وقومه وإغراق آل فرعون معه ؛ وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التى مرَّ بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله ، وكأن هذا التفصيل جيء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله ؛ ليكون أمامه وأمام أصحابه مثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية ، ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل من قوم نوح ، وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب الأيكة - عدا ما ذكر من أمر فرعون وقومه ؛ ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب عاقبة أمرهم وما سيلقونه من مؤاخذة الله إن استمروا عليه ، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم وليس للمكذبين .

الدعوة فى الأقربين:

ودعا رسول الله ﷺ عشيرته بنى هاشم بعد نزول هذه الآية ؛ فجاءوا معهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً ، فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أن آخذك فحسبك بنو أبيك ؛ وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب ؛ فما رأيت أحدًا جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به فكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال: **«الحمد لله أحمده وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»** ثم قال: **«إن الرائد لا يكذب والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما**

تعملون؛ وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا» .

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقًا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ما تحب فامضِ لِمَا أمرت به ؛ فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب ، فقال أبو لهب: هذا والله السوأة ؛ خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا .

عَلَى جَبَلِ الصَّفَا :

وصعد النبى ﷺ ذات يوم على الصفا ثم هتف: «**يا صباحاه**» وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم .

ثم جعل ينادى بطون قريش ويدعوهم قبيلة قبيلة: «**يا بنى فهر، يا بنى عدي، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب" فلما سمعوا قالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد، فأسرع الناس إليه حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فلما اجتمعوا قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم.. ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله أى: يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع؛ لئلاَّ يدهمهم العدو ، فخشى أن يسبقوه فجعل ينادى: يا صباحاه**» .

ثم دَعَاهم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى الحق وأنذرهم من عذاب الله ؛ فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي كَعْبِ ابْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ؛ فَإِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا**» أى: سأصلها حسب حقها . .

ولَمَّا تَمَّ هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا ، ولا يذكر عنهم أى ردة فعل سوى أن

أبا لهب واجه النبى بالسوء وقال: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ١ - ٥] كانت هذه الصيحة العالية هى غاية البلاغ فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم وأن عصبة القرابة التى يقوم عليها العرب ذابت فى حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله، ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه فى أرجاء مكة؛ حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤].

فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام فى مجامع المشركين ونواديهم يتلو عليهم كتاب الله ويقول لهم: ما قالته الرسل لأقوامهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩].

وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم فكان ﷺ بفناء الكعبة نهارًا جهارًا وعلى رُءُوس الأشهاد وقد نالت دعوته مزيدًا من القبول ودخل الناس فى دين الله واحدًا بعد واحدٍ وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد واشمأزت قريش من كل ذلك؛ وساءهم ما كانوا يبصرون[1].

خُطَّةُ قُرَيْشٍ فِى مُقَاوَمَةِ الدَّعْوَةِ:

وخلال هذه الأيام اقترب موسم الحج فاجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة وكان ذا سنٍّ فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به قال: بل أنتم فقولوا أسمع قالوا: نقول كاهن قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه[2]؛ قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا بتخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر قال: ما هو بشاعر، وعرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر قال: فما هو بساحر، لقد رأينا السحار

---

(١) الرحيق المختوم ٨٣ - ٨٥، نقلاً من صحيح البخاري ومسلم.

(٢) زمزمة: صوت خافت.

بسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنا لقوله لحلاوة، وإنا أصله لعذق، وإن فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحرًا، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره؛ فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة قوله: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٥].

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى الله وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب؛ فصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ وانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها [1].

* * *

(١) ابن هشام ١ / ١٨٠ - ١٨٢، الرحيق المختوم ٨٥ - ٨٦.